الحلقة الخامسة

نهاية الخلافة من خلال الفتن والمؤمرات

الخلافة بين المد والجزر ، تحاول أن تنتصر مع المنتصر (٣٥٠ -٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦ م) فى كل الجبهات متواجهة مع الأخطار التى حاقت بها من مختلف الجنبات ، فالشيعة الفاطميين من ناحية ، والنورمانديين بقراصنتهم براً وبحراً من ناحية أخرى ، فضلاً عن التقنصات المدمرة والمقنّعة التى تنتظر الساعة الملائمة لكى تنقص وتستعيد مواقعها ممثلة فى أسبانيا المسيحية المترقبة لاستغلال أى ضعف أو انفجار ، أو أى فتنة لكى تنقض ، هجمات تلو هجمات وفى كل مرة كان المنتصر منتصراً .

ولم يوقفه هذا الخطر الجاسم والمستمر على حدوده من اهتمامه بخلافته فى مختلف المستويات ، أنشأ المدارس للفقراء وعمّر المكاتب فى داخل القصر بمختلف كنوز الفكر ، دون أن يتوقف عند فن معين ، مما جعل مكتبة قصره تحتاج إلى فهارس ذكر مَن أرّخوا لهذه الفترة . أنها وصلت إلى أربعة وأربعين كراسة ، كان يتتبع ممرات الفكر فى كل مكان كى يستعيد كنوزها لتكون إلى جانبه فى قصره ، يستلهم منها قارئاً وليس فقط حافظاً وحارساً لها .

وقد شجّع من ناحية أخرى التيّارات الفكرية من مدرسة مسلمة المجريطى نسبة إلى مدريد على حد قول المستشرق « أ . ج بالنثيا » هو الذى أدخل « رسائل إخوان الصفا » إلى الأندلس . كما أن فى فترته كان هذا الطبيب الجراح أبو القاسم الزهرواى (٣٢٤ - ٤٠٣ هـ / ٩٣٦ - ١٠١٣ م) الذى يُعتبر حسب مَن اهتموا من الباحثين فى هذه الفترة من أعظم أطباء ذلك العصر ، بل كانت له أصداء عند اللاتينين إذ عرف باسم « أبو لكاسيس » ، وقد كان بارعاً فى الجراحة ، فضلاً عن تأليفه لموسوعة ترجمت إلى اللاتينية

وتحمل عنوان « التعريف لمن عجز عن التأليف » ، ولنا عودة فى حوارنا إليه مع قلاع المجد من المفكرين فى حلقات تالية.

ونذكر أيضاً سعيد بن عبد ربه ، وابن جلجل فى دراسة النبات ، ويُذكر لهذا الخليفة المنتصر أن مجلسه كان يجمع بين مختلف التيّارات فقهاء ، وفلاسفة ، بل نلاحظ بين الجالسين « عبد الله بن أبى ذيلم ، يحيى بن عبد الله بن يحيى الليثى » ، وابن القوطية الذى كان لغوياً ومؤرخاً ، ومن الفقهاء الظاهرين نذكر منذر بن سعد البلوطى ، الذى كان يميل بعد دراسته فى المشرق إلى مذهب داود ابن خلف الظاهرى ، بل نلاحظ أيضاً فى عصر المنتصر رد اعتبار ضمنى لمدرسة ابن مسرة حيث استعادت أنفاسها لتنتشر ، ومن بين مَن جسدوها محمد بن مفرج المعافرى ، وعمت حرية الفكر وإشراقه ليعطى متنفساً حتى لغير المسلمين من سكان الأندلس مسيحيين ويهود ، وقد استعادوا عبر هذه التهوية مخرجاً لتعود الدارسات التلمودية لهذا اليهودى الحائر الذى وضع له وخطّط ، كما سنرى ابن ميمون الأندلسى الدليل الذى يحمل عنوان : « دلالة الحائرين » أو « دليل الحيران » ، وكان من بين المؤسسين للمدرسة التلمودية بقرطبة أبو يوسف حسداى بن إسحاق بن عزرا بن شربوط (٣٣٣ - ٣٥٩ هـ / ٩٤٥ - ٩٧٠ م) الوزير المعروف لعبد الرحمن الناصر مما قدَّم من العون لموسى بن حانوك ومدرسته .

مع المنتصر إذن ، لم تنتصر الخلافة فقط فى صد أعدائها المترقبين وعلى مختلف الحدود ، وإنما انتصر الفكر والعلم فى هذا العصر ، الذى لم يضع له نهاية إلا الشلل الذى أفقد المنتصر قُدراته وحوَّله إلى قعيد موصياً لطفل بخلافة حافلة بالمواجهات ، بل وغنية بالمتطلعين للوثوب عليها ، ليس فقط من خارج أرضها ، وإنما من داخل أحشائها ، فها هو الوزير جعفر بن عثمان المصحفى بعد وفاة المنتصر (٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م) يتصدر ، ولكن لفترة محدودة فى تولى أمور الخلافة لخليفة لم يتجاوز الأعوام العشرة من عمره ، ولكنه استمر أكثر من ثلاثة وثلاثين عاماً يغطى فترة حافلة بالمؤامرات وبالمد والجَزر ، وبالمتطلعين إلى

السُلطة والحكم ، بل والمنقضين على هذه السُلطة ومن البداية مستغلين الانشقاق والاختلاف فى مَن يتولى السُلطة فعلياً : الجند أم الحاجب والحاشية ، ثم ما كان فى عصر هذا الخليفة الطفل هشام بن الحكم (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٨ م) من وثوب المغيرة بن عبد الرحمن الناصر المفضل من طبقة الجند لتولى الخلافة لأن جعفر المصحفى لم يقر ذلك ، وعهد إلى ابن أبى عامر بقتله ، فقتله خنقاً ، ولكنه لم يعمر طويلاً حتى تم التآمر عليه ، وأصبح بذلك مركز القوة فى الخلافة ، مستعيناً برجال اصطفاهم من زناتة إلى جانب الصقالبة والمولّدين ، واستعاد فى ذاته الرغبة ليتصدى ليس فقط للخصم فى الداخل ، وإنما ينازل الخصوم فى الخارج مستولياً على برشلونة وغيرها ، مشيداً لـ « الزاهرة » فى شرق قرطبة ، وفيها خزائن الأموال ، بل لم يقف بطموحه عند هذا الحد فسمح لنفسه أن يلقب بـ « كالحاجب المنصور » بعد أن نكب المصحفى وانتهى مجسداً للسلطة قلباً وقالباً فى صدر الخلافة ، ذاهباً إلى حد أن تكون المراسلات باسمه ، بل ويُدعَى له من فوق المنابر كحاجب منصور.

فى هذا الوقت كان الخليفة الرمزى فى الواقع هشام بن الحكم سجيناً لملذاته فى قصره ، وحبيساً لنصائح أمه « صبح » التى بدأت بدورها تتابع الأحداث مشاركة ، جامعة حولها مَن يؤمِّن لها الحد من هذا « المنصور» صاحب الطموحات بلا حدرد ، فتآمرت عليه مستغلة ما له من عداوات لمحاولة اغتياله رغم ماكان يربطه بها من توادد قبل ذلك ، مما حدا به أن يعلن الطاعة للخليفة ، وتوفى ليترك أمر الحجابة من بعده لأبنائه ، وانتهت الفترة بالخلع والقتل ، خُلِعَ هشام وقُتِلَ مَن قُتِل من الحجاب بفضل مَن كانوا يكنون الولاء للأمويين .

ومع خلع هشام بدأت إرهاصات الخلع للخلافة ، إذ دخلت فى مرحلة من الاهتزاز بدأت بتولى الخلافة من قِبَلِ محمد بن هشام بن عبد الجبار الذى تلقب منذ ذلك الحين بالمهدى (٣٩٩ هـ /١٠٠٨ م) لتعرف خلال ثلاثة وعشرين عاماً

مسلسلاً من تداول الخلافة ، وقد تجاوزوا فى عددهم ما عرفته الخلافة فى فترة سابقة تقارب المائة عام ، توالى الخلفاء ، هذا يُنصب وهذا يُخلع ، ولكن الحياة الفكرية لم تتوقف ، وإنما انعكست عليها الأحداث والصراعات ، فهذا المنصور الذى كان يُجسِّد القوة فى الخلافة إبَّان هشام بن الحكم ، بقدر ما كان فى أعماقه يميل إلى الفلسفة ، لكنه خشى من ردود فعل الفقهاء فتم الإحراق لكتب الفلسفة والفلك ، لعله بذلك يؤمِّن لنفسه الرضا والمساندة ، هذا بالإضافة إلى أن الشعر كان عزيزاً على الأندلس بدوره ، لم يتوقف موكبه خصوصاً الشعر الغنائى ، بل وُضِعَت له جوائز ، وكمجرد مثال نذكر « صاعد البغدادى » الذى كان إلى جانب شعره لغوياً ومؤرخاً ، وكذلك « الرمادى » ...

الخلافة تتأرجح ، ولكن الحياة فى قرطبة وفى بقية ديار الأندلس لم تتأرجح وإن كانت تعانى من ردود فعل هذه الخلافات والصراعات بين جند صقالبة ، وأندلسيين ، وعشائر وقبائل أخرى نزحت من المغرب ، ولقد سمح هذا الجو الضبابى للمتسللين من النصارى أن يتدافعوا لمناصرة هذا على ذاك ، مكتسبين فى الواقع للأرض على حساب الشقاق والفُرقة ، فكانت المقايضات بين الحصون ومكر المساندة ودهاء الكيد ، وغاصت الخلافة فى احتضارها ، وبدأت التطلعات لاقتناص المواقع لتخلع ضمنياً قبل أن تعلن صراحة نهايتها ، فهؤلاء بنو حمود بمالقة يستولون على قرطبة وقبل سقوط الخلافة ، وبنى عباد على إشبيلية .

جسد الخلافة يتمزق قبل أن تخرج أنفاسها الأخيرة ، لقد انتهت الخلافة عملياً قبل أن يعلن الوزير أبو الحزم بن جهور صراحة نهايتها لعدم وجود مَن يستحقها ، وكما هو عهدنا فى العديد من فترات التاريخ النقدية لأمتنا ، لم يحتضر الفكر باحتضار السلطة ، ويكفينا كمثال أن هذه الفترة هى بذاتها التى أفرزت لنا فيما بين (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٤ م) ابن حزم ، هذا المُعَمَّر الذى عاصر قرطبة الفتنة وبداية الانهيار ، فترة تاريخية حرجة عامرة بالدسائس والصراع السياسى .

وقد انعكست الأحداث على ابن حزم فى مواقفه الفكرية وتصوراته ، وسنعود إلى ذلك فى حلقات تالية معرِّفين بقادة الفكر أمثال « الزهراوى » الطبيب ، و « ابن حزم الظاهرى » ، وغيرهما . ولهذا لا يمكن إغفال الجانب الفكرى حين مرورنا عبر فترة الانهيار للخلافة مشيرين إلى ابن حزم وأمثاله ، فهو الذى أثرى أصول الفقه بين التقليد والاجتهاد بما فى ذلك أصول الأحكام ، والقياس الفقهى إلى القياس الأرسطى ، كما أثرى النقاش بين الدين والفلسفة ونقده لأشكال علم الكلام .

وهذا إن دَلَّ على شىء ، فإنما يدل على ما للعقل العربى المسلم من قُدرة كامنة تتحرك حتى فى أجواء الضباب والعتمة ، مؤثرة ومتأثرة ، تتعامل مع المعاناة وتترجمها دون أن تنكسر بانكسار السُلطة أو تأفل بأفولها ، ولعل ما قاله صاحب « كتاب أعمال الأعلام فى مَن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام » الملقب بذى الوزارتين « لسان الدين بن الخطيب السلمانى » – (ص ١٣٩) أبلغ دليل على أن هذا الجسد العربى المسلم وهو ينزف ويئن بالجراح قادر على العطاء ، يقول لسان الدين ابن الخطيب :

« ... ومشى البريد فى الأسواق والأرباد ، بأن لا يبقى أحد بقرطبة من بنى أمية ، ولا يكنفهم أحد ، وكان القائم بإخراجهم ومقيم الرسم بقرطبة بعدهم ابا الحزم بن جهور .... وانتهى أمر بنى مروان لهذا الحد ومحا الرسم الجماعة ، وتقسم البلاد والأقطار رؤساء الطوائف ، قد استحاز كلاً منه استبداده بنفسه ورضى بذلك مَن بقواعدهم من المسلمين على وفور الفضلاء وتعدد العلماء وانفساح الأقطار وتزاحم الأعشار ، والأرض للّه يورثها مَن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .... » .

وهكذا اتسع وباء الطوائف وانتشر ليعم ما تبقى من الأندلس ، وسوف نُفرد الحلقة التالية لهذه الدويلات الطائفية حتى نصل إلى غرناطة الحبيسة وغروب شمسنا الأندلسية .

فماذا عن الطوائف وما آل إليه الأمر معهم من ضياع الفردوس الذى أصبح يوصف بالمفقود ؟

* * *